

قدر ما يسع ذاكرته أن تضرب صعداً في الأجيال، كان قدرهن أن يجلبن الماعز، وينفخن في الرماد، في انتظار الرجال. فلما بدأت طوابير الجنود العميان التي لا نهاية لها تجتاز القرى، فهمت النسوة أنهم عادوا كلهم، وأنها عودة لا رجعة بعدها.

في ذلك اليوم أعطت الماعز خلاً وانطفأت النار وسط الرماد. والشيوخ الذين مكثوا في البيوت بسبب سنهم المتقدمة، سقطوا مرضى من غم وغيظ، ثم قضوا نحبتهم. غير أن الشباب كانوا أعظم قوة، فما كان لهم أن يموتوا. إن أجساد المحاربين المفتولة العضلات، المتصلبة، ما كان لها أن تموت من جرح بسيط تحت الجبين. فلما استعاد الشباب قواهم، انتزعوا أنفسهم من جلود الماعز، أخذ التلّيف يتصاعد في أعضائهم، مثلما يتصاعد النسغ بالشجر في فصل الربيع.

اجتمعوا في مجلس القرية ليتناقشوا فيما بينهم، لكن تلك الجلسة اتخذت مجرى مضطرباً واختتمت في البلبلة، فاجتمعوا في الحانة ليتضاربوا، فسارت الأمور سيراً أفضل. كانت الضربات تضعف في الأغلب، لكنها توجع عندما تصيب. ولدى انبثاق الفجر، كان الرجال يعودون إلى منازلهم متلمسين طريقهم بالسيف بمثابة عصا الأعمى، وفي غضون ذلك يمكث كثيرون في مواضعهم على شفا الموت. كان في ذلك عزاء وراحة.

غير أنه لم يكن بمقدور الرجال أن يفهموا ما جرى حقاً. فعن الحرب مع بيزنطة، كانت الأمور كالفصول، تتقلب مثل الربيع والخريف. كانت تسير مسارها، مثلما الجليد في الشتاء، وفي الصيف الحرّ اللاهب. ولكن هي ذي الأمور الآن قد مضت وانقضت. فبلغاريا مغلوبة على أمرها، بلغاريا القوية المتوحشة مسحوقة. حدثت أعمال همجية غزيرة،